١٤٣٠

المعاصرة وفقه الواقع لدى خطباء وأئمة المساجد

دراسة تأصيلية في ضوء الكتاب والسنة والقواعد الشرعية

بقلم

الدكتور / مصطفى بن كرامة الله مخدوم

عضو هيئة التدريس بقسم الدراسات الإسلامية

بكلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة طيبة

مقدمـــــة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه أجمعين ... وبعد
لقد كانت للمسجد مكانة مركزية ووظيفة محورية في حياة الأمة لم تقتصر عناصرها على تقوية البعد الروحي وممارسة العبادات فقط كما هو الحال في الكنائس ومعابد الديانات الأخرى ولكنه تجاوز ذلك إلى جوانب الحياة المختلفة من التواصل الاجتماعي والتكوين العلمي والبناء النفسي والتوجيه الإعلامي وإدارة الدولة من رحابه ومحرابه .

لقد وصف ابن تيمية -رحمه الله- المساجد بأنها (مواضع الأئمة ومجامع الأمة ... فيها الصلاة والقراءة والذكر وتعليم العلم والخطب وفيها السياسة وعقد الألوية والرايات وتأمير الأمراء وتعريف العرفاء ، وفيها يجتمع المسلمون لما أهمهم من أمر دينهم ودنياهم) ١

وذكر أيضا : (أن مجلس الإمام الجامع هو المسجد الجامع .. وما بُنيت القصور إلا بعد عهد الخلفاء الراشدين ، ومع ذلك فقد بُنيت قصورهم بجوار المساجد الجامعة كقصر الخضراء لبني أمية) ٢

ولكن هذه الوظيفة والمكانة أخذت في الانحسار والتراجع عبر التاريخ نتيجة للضعف والوهن والتراجع والتغيير السلبي الذي أصاب الأمة الإسلامية ، والذي عبّر عنه محمد إقبال بقوله :

أرى التفـــــــكير أدركه خمـــــول　　ولـــــــم تعدِ العزائم في اشتعـــال
وأصبـــــــح وعظكم من غـــير سحر　　ولا نـــــــور يطلّ من المقـــــال
وعنـــــــد الناس فلسفة وفـــــكر　　ولـــــــكن أين تلقين الغـــــزالي
وجلجـــــــلة الأذان بـــــكل صوت　　ولـــــــكن أين صـــوت من بلال
منائركـــــــم علت في كـــــل حي　　ومسجدكم من العبـــّــــــاد خالي

---

(١) مجموع الفتاوى ٣٩/٣٥

(٢) مجموع الفتاوى ٤٠/٣٥

ومتى أردنا عودة المساجد إلى مكانتها التاريخية المؤثرة فلا بد من مراجعة نقدية شاملة لأوضاعها ووضع خطة دقيقة لمعالجة مشكلاتها وبث أنوارها وتفعيل أدوارها في المجتمع .
إن رسالة المسجد لا تتم بمجرد بناء المسجد ولكن بالجهود المبذولة بعد ذلك من وعظ وتعليم وربط لقلوب المسلمين ... والمسجد قد يقوم بدور سلبي إذا كان القائمون عليه غير مخلصين ولا صادقين ولا مؤهلين كما حكى القرآن عن المنافقين أنهم بنوا مسجداً يقوم في المجتمع بأدوار إفسادية وهي : الضرار والكفر والتفريق بين المؤمنين ...ولهذا كله لابد من تأهيل الأئمة والخطباء تأهيلاً جيدا متكاملاً حتى لا يكونوا كما قال صالح القيرواني :

خطباءُ هذا العصر خطبٌ في الورى   ووجودهم ضربٌ من النكباتِ
لا لومَ إن تبدو المساجد فُرّغا   والعذرُ بانَ لتارك الصلواتِ

ولست مع الشاعر في هجر المساجد وترك الصلوات ولكنني معه في أن قصور بعض الأئمة والخطباء وضعفهم في أداء رسالتهم على الوجه المطلوب يؤدي إلى تنفير الناس .
إن الناس عندما يجدون في مساجدنا عوامل الجذب والتأثير سيتعلقون بها وسيعمرونها... وعندما يجدون فيها عوامل الطرد والتنفير سينطلقون إلى غيرها.
إن من الإنصاف قبل أن نوجه سهام اللوم للجمهور والعامة بهجر المساجد أن نوجه سهام النقد الهادف لأنفسنا - أعني الأئمة والخطباء - ونتساءل هل نحن على المستوى المطلوب والمؤثر في زمن العولمة وكثرة المؤثرات ؟ .
إن أئمة المساجد وخطباءها هم قادة رأي وصناع أمة في المجتمع الإسلامي ، ويقومون بدور تعليمي وتربوي وإعلامي كبير في تشكيل آراء المجتمع وأخلاقيات الأفراد ، ولهذا كان أول ما قام به صلاح الدين الأيوبي لمّا فتح مصر وحرّرها من أيدي الفاطميين هو تغيير الخطباء وأئمة المساجد والقضاة باعتبارهم قنوات التغيير وتشكيل الرأي العام .
ومن أهم الأسس التي ينبغي أن يعنى بها الأئمة والخطباء : المعاصرة في الخطب ومعايشة هموم الناس ومشكلاتهم القائمة وتقديم الحلول العلمية والعملية من منظور الإسلام ورؤيته الدقيقة والشاملة ، والبعد عن القضايا النظرية التي ليس لها أثر في واقع الناس وليس لها وجود في حياتهم ، بحيث يجد الناس في مواعظ الخطباء دواء وعلاجا لأزماتهم الواقعية مثل الغلو والانحلال الأخلاقي والبطالة والجريمة وقطيعة الرحم ...

إن بُعد الخطباء عن واقع المجتمع وقضايا العصر وتحدياته يضعف رسالة المسجد في حياة الناس ، بل يساهم - بطريقة غير مباشرة - في استمرار أزماتها وتعميق غفلتها وطول سباتها في زمن تتسابق فيها الأمم وتتنافس فيها الشعوب لتحقيق الريادة والتمكين في الأرض .

والمعاصَرة تعني - في الأصل - وجود أمرين في عصر واحد ومنه قولهم " المعاصرة سبب المنافرة" والمراد هنا معالجة القضايا المعاصرة في حياة الناس اليوم .

والقضايا بمعنى الحوادث والموضوعات نوعان:

[أ] قضايا قديمة ، وهذه القضايا قد تكون قضايا بائدة مثل كثير من القضايا الكلامية والفلسفية التي خاضت فيها بعض الفرق ، وقد تكون قضايا حيّة لها امتداد تاريخي ووجود معاصر .

[ب] قضايا حديثة قائمة في الواقع مثل التحلل الأخلاقي والانفكاك الأسري والصراع الطائفي ، وقد تكون لها جذور تاريخية قديمة .

وتجدد القضايا من طبيعة الحياة كما يشهد لذلك استقراء التاريخ، ولا سيما في عصر العولمة والانفتاح ،وكون القضية معاصرة يعطيها أهمية خاصة فإن دراستها وتحليلها وبيان الموقف السليم منها يمثل واجب الوقت الذي يجب أن يتصدى له العلماء والمفكرون والخطباء ، ولا يجوز أن تنشغل الأمة بالقضايا البائدة عن القضايا والتحديات المعاصرة التي تؤرق الناس .

لكن معالجة القضايا المعاصرة وعرضها على الجمهور يمكن أن تكون بطريقة خاطئة تعتمد على العاطفة والحماس والمعلومة الوهمية والنظرة السطحية دون مراعاة للضوابط والأصول الشرعية مما يؤدي إلى نتائج سلبية ومفاسد محققة ، وهذا يتنافى مع رسالة المسجد في الإصلاح والهداية وجمع القلوب وتوحيد الكلمة ودفع المفاسد عن الأمة .

ومن هذا المنطلق جاء هذا البحث المختصر لتأصيل مبدأ المعاصرة وفقه الواقع وبيان ضوابطه العلمية والشرعية حتى يساهم في ترشيد رسالة الأئمة والخطباء ودورهم الإصلاحي في المجتمع الذي يقوم على أساس الوسطية والاعتدال . والله الموفق

أولاً: تعريف فقه الواقع:

هذا المصطلح من المصطلحات التي استعملت في الأوساط الدعوية والشــرعية، ولا يعــرف بالتحديد أول من استعمله ولكنه شاع حديثاً على ألسنة المفكرين والدعاة، وأقدم من وقفت على استعماله لمرادفات هذه الصيغة هو الإمام ابن القيم حيث عبّر عن هذا المعنى بفهم الواقع والفقه فيه ، كما عبّر بالفقه في نفس الواقع[٣].

تعريف الفقــه:

يطلق الفقه في لغة العرب على الفهم والإدراك مطلقاً ومنه قولــه تعالى: **(وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي)** وقولــه تعالى: **(قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ)** وقد يطلقه العلماء أحياناً على الفهم الدقيق بخصوصه .

وأما الفقه في الاصطلاح فهو "العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من الأدلة".

تعريف الواقــع:

يطلق الواقع في اللغة لمعان متعددة منها :

(١) **الحاصل فيقال:** هذا أمر واقع أي حاصل، فالواقع هو الشيء الموصوف بالوقوع بمعنى الحصول والوجود، ومنه قولــه تعالى: **(إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ)** [المرسلات: ٧].

(٢) الساكن والساقط والهابط من علو كما يقال: "طائر واقع إذا كان على شــجر ونحوه" قال الأخطل :

كأنما كانوا غرابا واقعا **** فطار لما أبصر الصواعقا [٤].

(٣) الثابت ومنه قولــه تعالى: **(وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ)** أي ثبت أجره .

(٤) الواجب ومنه قولــه تعالى: **(وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً)** ، قال الزجاج أي وجب القول .

---

(٣) انظر: إعلام الموقعين (٨٧/١)- الطرق الحكمية (٤ ، ٣٨).

(٤) انظر: لسان العرب ٤٠٤/٨ ، المعجم الوسيط (١٠٥٠-١٠٥١).

وأما الواقع فيطلق في الاصطلاح على:

[أ] ما يقابل المثال، فيقال: هذا مذهب واقعي، وهذا مذهب مثالي، وكن رجلاً واقعياً ولا تكن مثالياً ، والمراد هنا تبني الأفكار والآراء بناءً على الأحداث الحاصلة والوقائع الجارية ، كما يطلق مصطلح الواقعية على مذهب أدبي يعتمد على الوقائع وتصوير أحوال الناس دون نظر مثالي(٥).

وبناء على ذلك يمكن أن نقول : فقه الواقع من حيث التركيب الإضافي هو فهم الحاصل من أمور الناس.

[ب] وتطلق الواقعة عند فقهاء الحنفية بمعنى " المسألة النازلة التي استنبط الفقهاء المتأخرون حكمها و لم ينص عليها فقهاؤهم المتقدمون" وتسمى بالفتاوى والواقعات(٦).

[جـ] وعرّف صديق حسن خان الواقع عند المتكلمين بقوله: "هو ما عليه الشيء بنفسه في ظرفه مع قطع النظر عن إدراك المدركين وتعبير المعبرين"(٧).

التعريف اللقبي :

عرف الدكتور ناصر العمر فقه الواقع - من حيث التعريف اللقبي - بقوله : "علم يبحث في فقه الأحوال المعاصرة من العوامل المؤثرة في المجتمعات والقوى المهيمنة على الدول، والأفكار الموجهة لزعزعة العقيدة، والسبل المشروعة لحماية الأمة ورقيها في الحاضر والمستقبل"(٨) وفيه تطويل لا يليق بالتعريفات .

وعرفه د. سعيد بيهي بقوله: "معرفة ما عليه الشيء بنفسه في ظرفه وكيفية استفادتها وحال المستفيد"(٩).

ويمكن تعريفه بأنه: "فهم أحوال الناس والأحداث الجارية على ما هي عليه في ذاتها".

ثانياً: خصائص الواقع :

[١] البشرية:

---

(٥) انظر: المعجم الوسيط (١٠٥١/٢).

(٦) رسائل ابن عابدين (١٧/١).

(٧) أبجد العلوم (٤١٣/١).

(٨) فقه الواقع – د. ناصر العمر (ص١٠).

(٩) التأصيل العلمي لفقه الواقع (١٩٥).

الواقع هو عبارة عن تصرفات الخلق وأعمال الناس وهم بشر تجري عليهم أحكام البشرية بكل خصائصها وطبائعها، ولهذا نسب القرآن أفعال البشر إليهم في آيات كثيرة كقولـــه تعالى: **(فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ)** ، **(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)**، وهذا إذا أخرجنا من الواقع ما هو من أفعال الله تعالى وصنعه كوضع السنن الإلهية وإيقاع الكوارث العامة ونحو ذلك.

[٢] قابلية الخطأ وعدم العصمة:

إن الواقع ليس معصوماً فيمكن أن يقع فيه ما يخالف الشرائع والعقول لأنه من أفعـــال الناس وهم معرضون للخطأ والنسيان والإكراه كما جاء في الحديث **(كل ابن آدم خطاء)** و لم تضمن العصمة إلا للأنبياء .

[٣] التنوع والتعـــدد:

من خصائص الواقع أنه متنوع الأشكال ومتعدد الصور، فالواقع في بلد يختلف عنه في بلد آخر، والواقع في زمان يختلف عنه في زمان آخر ولا نجد واقعين متشابهين مـــن كـــل الجهات. وهذا من حيث تعدد الظروف المكانية والزمانية أما الواقع من حيث التوحّد فإنه أمر حقيقي لا يختلف باختلاف المناهج والعقول"[١٠].

[٤] التغيّر والتحول:

من خصائص الواقع أنه متغيّر الأطوار، متحوّل الأوصاف وليس هناك شـــيء ثابـــت غالباً كما قالوا : " دوام الحال من الحال" فقد يكون الناس في واقع حرب ثم يتحولون إلى واقع أمن وسلام وقد يكون واقع الناس الجهل فيتحولون إلى العلم ، وقد يكون واقعهـــم الفقر فيتغير إلى الغنى كما قال تعالى: **(وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ)**، وهذا ما ينطبـــق على واقع الأفراد أيضا، فقد يعيش الشخص واقعا سيئا ثم يتحول مع الأيام إلى واقع حسن .

ومعرفة هذه الخصائص للواقع تدلنا على أن الواقع في حدّ ذاته ليس بحجة، ولا يصـــلح الاستدلال به في إثبات الحكم أو نفيه ، ولكنه قد يؤثر في الحكم أحيانـــاً كمـــا ســـتأتي الإشارة إليه ، وبالتالي نستطيع القول بأن الواقع هو الذي يجب أن يخضع للـــنص ولـــيس العكس .

(١٠) انظر: التأصيل العلمي (ص١٦٦).

ثالثـــاً: القرآن الكريم وفقه الواقع:

إن الاستقراء الكامل لآيات القرآن الكريم يدلنا على أن التعريف بواقع الناس وأفكـــارهم وسلوكهم هو مقصد من مقاصد القرآن وهدف من أهدافه.

من ذلك : قوله تعالى: **(وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ)** [سورة الأنعام: ٥٥].

في الآية قراءتان، برفع اللام وفتحها، ويكون المعنى على قراءة الرفـــع: لتتضـــح لـــك وللمؤمنين طريق المجرمين. ويكون المعنى على قراءة النصب: "ولتستبين أي يا محمد أو يـــا مخاطب سبيل المجرمين".

قال الإمام الطبري :" وأولى القراءتين بالصواب عندي في السبيل الرفع لأن الله تعـــالى ذكره فصّل آياته في كتابه وتتريله، ليتبين الحق بها من الباطل جميع من خوطب بها لا بعض دون بعض"(١١).

قال الإمام ابن القيم:" فالعالمون بالله وكتابه ودينه عرفوا سبيل المؤمنين معرفة تفصيلية، وسبيل المجرمين معرفة تفصيلية فاستبان لهم السبيلان"(١٢)، وقال أيضاً: "وهذه حال المؤمن يكون فطناً حاذقاً أعرف الناس بالشر وأبعدهم منه، فإذا تكلم في الشرّ وأسبابه ظننته من شر الناس فإذا خالطته وعرفت طويته رأيته من أبرّ الناس"(١٣).

ومن ذلك أيضاً تقسيم الناس في سورة الفاتحة إلى مهتدين وضالين ومغضوب عليهم.

وفي بداية سورة البقرة نجد حديثاً واضحاً عن المؤمنين والكافرين والمنافقين، مع استطراد واضح في بيان طائفة المنافقين: **(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ...)**

وقال فيهم أيضاً: **(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ**

---

(١١) جامع البيان (١١/٣٩٥).

(١٢) الفوائد (٢٠١).

(١٣) مفتاح دار السعادة (١/٢٩٦).

الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (٢٠٦)).

وتحدث عنهم القرآن في سورة التوبة حديثاً يكشف عن طبائعهم وسلوكهم حتى سميت السورة بالفاضحة لأنها تفضح أحوال المنافقين .

وتحدث عنهم في سورة الأحزاب، وكشف عن نواياهم السيئة وتخذيلهم للأمة في الأزمات والمواقف التاريخية، كما أفردهم القرآن بسورة خاصة سميت بسورة المنافقين، وكشف القرآن عن دعاواهم وإثارتهم للفتن في المجتمع الإسلامي.

وهكذا تحدث القرآن عن اليهود وعداوتهم لرسول الله r ووقوفهم ضد دعوته، وحرصهم على قتله وتأليب القبائل عليه، واستعرض القرآن تاريخهم الأسود مع الرسل والأنبياء من خلال قصص بني إسرائيل، وجعلهم القرآن في رأس قائمة العداوة فقال: **(لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ...)** هكذا تحدث القرآن عن النصارى وتاريخهم وطبائعهم وانحرافاتهم ومقالاتهم: **(لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ ...)**

رابعاً: السنة النبوية وفقه الواقع:

لقد كان النبي r بصيراً بالواقع عالماً بأحوال الناس، وطبائع الرجال، وصور الخير والشر في المجتمع.

[١] علمه بأحوال الأمم والملوك:

ويظهر لنا هذا جلياً في توجيه أصحابه بمكة إلى الهجرة نحو الحبشة دون غيرها من البلاد مع قوله: **(إن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد فلو خرجتم حتى يجعل الله لكم فرجاً)**[١٤].

ومن ذلك علمه بطبائع الشعوب، وقوله لرجل من أصحابه لما ذهب إلى حي من أحياء العرب فسبوه وضربوه: **(لو أن أهل عمان أتيت ما سبّوك ولا ضربوك)** رواه مسلم.

وقوله: **(أتاكم أهل اليمن أرق أفئدة وألين قلوباً الفقه يمان والحكمة يمانية)** متفق عليه.

---

(١٤) انظر: فتح الباري (١٨٨/٧) نقله عن ابن إسحاق .

بل إنه **r** لما بعث معاذاً إلى اليمن قال: **(إنك تأتي قوماً أهل كتاب فليكن أول مـــا تدعوهم إليه شهادة ألا إله إلا الله..)** متفق عليه، فعرفه بحال القوم حتى يستعد لهم بمـــا يناسبهم.

[٢] علمه بطبائع الأفراد وأخلاقهم:

ومن ذلك قوله **r** : **(أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأقرؤهم بكتاب الله أبي ابن كعب، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، ولكل أمـــة أمـــين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة)** رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه وأحمد بسند صحيح.

وفي هذا شواهد كثيرة بمراجعة أبواب المناقب والفضائل في كتب السنة.

[٣] علمه بالمقالات الباطلة والديانات الفاسدة:

لما قدم عدي بن حاتم إلى النبي **r** قال لعدي: **(يا عدي ابن حاتم أسلم تســـلم)** ـــــ ثلاثا ـــ قال :قلت: إني على دين، قال: **(أنا أعلم بدينك منك)**، فقلت: أنت أعلم بديني مني؟ قال: **(نعم ألست من الركوسية؟ وأنت تأكل مرباع قومك؟)** قلت: بلى، قال:هذا لا يحلّ في دينك. قال: **(نعم)**، فلم يعد أن قالها، فتواضعت لها، قال: **(أما إني أعلم الذي يمنعك من الإسلام تقول: إنما اتبعه ضعفة الناس ومن لا قوة لهم، وقد رمتهم العـــرب، أتعرف الحيرة؟)** قلت: لم أرها وقد سمعت بها، قال: **(فوالذي نفسي بيده ليتمن الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت من غير أحد..)**[١٥].

[٤] طلبه لأخبار الناس ولا سيما الأعداء:

ومن ذلك قولـــه **r** يوم الأحزاب: **(من يأتيني بخبر القوم؟)** قال الزبير: أنا ثم قال: **(من يأتني بخبر القوم)**، قال: الزبير أنا، فقال النبي **r** : **(إن لكل نبي حوارياً، وحواريَّ الزبير)** رواه البخاري برقم [٢٨٤٧]، وهذا من باب الحذر منهم كما في قولـــه تعالى:

. á ...Ñà2 ‘õïm (räè (qãB#ä ûï‰$$$š» â

خامساً: فهم الواقع عند السلف:

(١) سؤال حذيفة بن اليمان عن الشرّ والفتن "كان الناس يسألون رسول الله عن الخير، وكنت أسأله عن الشرّ مخافة أن يدركني، فقلت يارسول الله: إنا كنا في جاهليـــة وشـــر

(١٥) رواه أحمد (٢٥٧/٤ ، ٣٧٨).

فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شرّ؟ قال: **(نعم)**، قلت: وهل بعد هذا الشر من خير؟ قال: **(نعم وفيه دخن)**، قلت: وما دخنه؟ قال: **(قوم يهدون بغير هديي تعرف منهم وتنكر؟)** قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: **(نعم دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها؟)** قلت: يا رسول الله صفهم لنا، قال: **(هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا)**، قلت: فما تأمرني.. رواه البخاري في الفتن برقم [٦٦٧٣].

(٢) قول عمرو بن العاص عن الروم: "إن فيهم لخصالاً أربعاً، إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرة بعد فرة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف، وخامسة حسنة جميلة: وأمنعهم من ظلم الملوك" رواه مسلم.

ونحوه قول بعض السلف: "رحم الله امرأً عرف زمانه، واستقامت طريقته"[١٦].

سادساً: فقه الواقع في القواعد الشرعية[١٧]:

[١] تحقيق المناط:

والمقصود به معرفة المحكوم فيه على حقيقته، ومعرفة ما يدخل فيه وما لا يدخل فيه.. وهذا يقتضي المعرفة الدقيقة بالواقع ومكوناته، وبالأشياء وأوصافها .. وبدون ذلك يمكن أن تنزل الأحكام على غير ما وضعت له، ويمكن تعطيل الحكم مع وجود مناطه وسببه، وبدون تحقيق المناط سنرى أناساً ينفذون الحدود في غير موضعها وآخرين يضعون القتال في غير موضعه، وآخرين يضعون السّلم في غير محله.

إن فقه الواقع مقدمة ضرورية لتطبيق النص وتنزيله على الواقع كما لو سئل عن حكم الاستنساخ وعن الزواج بالقاديانية والنصيرية، فإنه لا يصح الحكم إلا بعد معرفة هذه الأشياء.

[٢] المشقة تجلب التيسير:

(١٦) فيض القدير (٤٤٤٠) حيث نقله السيوطي مرفوعاً عن ابن عباس ولا يصح.

(١٧) مستفاد بتصرف وزيادة من د. أحمد الريسوني – الاجتهاد (ص٦٤).

.بمعنى أن المكلف لو وقعت به ظروف طارئة أورثته مشقة زائدة في تطبيق الحكم فـــإن الشرع يرخص له في الحكم، وهذا فيه دلالة على أهمية معرفة الواقع في الحكم،وأن الحكم يرتبط بالإمكان والقدرة والمشقة، وهذه أمور تقديرية مبناها على ظروف الواقع .

[٣] النظر في مآلات الأفعال:

ومعناه النظر فيما يمكن أن تؤول إليه الأفعال من المصالح أو المفاسد، فالمجتهد ينظـــر إلى المتوقع في المستقبل، وهذا لا يأتي إلا من خلال معرفة صحيحة بالواقع.

وعلى هذا الأصل بنيت قواعد شرعية منها سدّ الذرائع وفتحها، والاستحسان ومراعاة الخلاف ، كما قرره الإمام الشاطبي في الموافقات(١٨).

[٤] تغيرّ بعض الأحكام لتغيرّ الظروف المحيطة بها:

لقد قررّ ابن القيم قاعدة بعنوان: "تغير الفتوى واختلافها بحسب تغيرّ الأزمنة والأمكنة والأحوال والنيات والعوائد"(١٩). فالأحكام المرتبطة بالأعراف والأسباب تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأحوال وتغيّرها.

قال القرافي: "الأحكام المترتبة على العوائد تدور معها كيفما دارت، وتبطل معهـــا إذا بطلت"(٢٠)، وهذا كله يتطلب فقها بالواقع.

[٥] بناء الأحكام الشرعية على الشروط والأسباب وانتفاء الموانع، فلا يحكـــم في قضية بحكم إلا بعد التأكد من توافر الشروط والأسباب وانتفاء الموانع كما قال الناظم :

ولا يتم الحكم حتى تجتمعْ   كل الشـــروط والموانـــع ترتفـــعْ

والتأكد من توافر الشروط والأسباب وانتفاء الموانع هو نوع من الفقه بالواقع ، وهـــو مطلوب شرعاً.

سابعـــا: فقه الواقع في نصوص العلماء :

المفتي كالطبيب فكما أن الطبيب لا يكون دواءه نافعاً إلا إذا عرف حال المريض وشخص مرضه تشخيصاً دقيقاً، وحدّده تحديداً صحيحاً.. فكذلك المفتي يجب عليه أن يعـــرف حـــال المستفتي ويفهم مسألته فهماً صحيحاً حتى يكون جوابه مطابقاً للمسألة.. وإلا حـــرّم عليـــه

(١٨) الموافقات (١٩٨/٤).

(١٩) إعلام الموقعين (٣/٣).

(٢٠) الذخيرة (١٧٦/١)، الفروق (١٧٧/١٧٦/٢).

الحلال، وأحلّ عليه الحرام، ولهذا اشترط العلماء في المفتي أن يكون ذا فطنة وذكاء، واشترطوا فيه أن يكون عارفاً بعادات المستفتي وأهل بلده حتى لا تكون فتواه على خلاف عادة بلده وعرفه[٢١].

(١) نقل القاضي أبو يعلى عن الإمام أحمد أنه قال: "لا ينبغي للرجل أن ينصب نفسه للفتيا حتى تكون فيه خمس خصال، أما أولها أن يكون له نية، فإن لم يكون له نية لم يكن على كلامه نور ولم يكن عليه نور، وأما الثانية فيكون له حلم ووقار وسكينة، وأما الثالثة فيكون قوياً على هو فيه معرفته، وأما الرابعة فالكفاية وإلا مضغه الناس، ومعرفة الناس"[٢٢].

قال ابن القيم معلقاً: "وهذا مما يدل على جلالة أحمد ومحلّه من العلم والمعرفة، فإن هذه الخمس هي دعائم الفتوى، وأي شيء نقص منها ظهر الخلل في المفتي"[٢٣].

(٢) وقال الخطيب البغدادي: "إن الفقيه يحتاج أن يتعلق بطرف من معرفة كل شيء من أمور الدنيا والآخرة، وإلى معرفة الجد والهزل والخلاف والضدّ والنفع والضر وأمور الناس الجارية بينهم والعادات المعروفة منهم فمن شرط المفتي النظر في جميع ما ذكرناه، ولن يدرك ذلك إلا بملاقاة الرجال والاجتماع مع أهل النحل والمقالات المختلفة ومساءلتهم وكثرة المذاكرة لهم وجمع الكتب ودرسها ودوام مطالعتها"[٢٤].

(٣) قال ابن القيم عن علم المفتي بأحوال الناس:" فهذا أصل عظيم يحتاج إليه المفتي والحاكم فإن لم يكن فقيهاً فيه، فقيهاً بالأمر والنهي ثم يطبق أحدهما على الآخر، وإلا كان ما يفسد أكثر مما يصلح فإنه إذا لم يكن فقيهاً في الأمر، له معرفة بالناس تصور له الظالم بصورة المظلوم وعكسه، والمحقّ بصورة المبطل وعكسه وراج عليه المكر والخداع والاحتيال، وتصور له الزنديق في صورة الصديق، والكاذب في صورة الصادق..بل ينبغي له أن يكون فقيهاً في معرفة مكر الناس وخداعهم واحتيالهم وعوائدهم وعرفياتهم، وذلك من دين الله.."[٢٥].

---

(٢١) انظر: أصول الفتوى، د. على الحكمي (٧١-٧٢).

(٢٢) العدة (١٥٩٨/٥).

(٢٣) إعلام الموقعين (١٩٩/٤).

(٢٤) الفقيه والمتفقه (٣٣٤/٢).

(٢٥) إعلام الموقعين (٢٠٤/٤، ٢٠٥، ٢٢٨).

(٤) وقال ابن القيم: "ولا يتمكن المفتي ولا الحاكم من الفتوى والحكم بالحق إلا بنوعين من الفهم:

أحدهما: فهم الواقع والفقه فيه، واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات حتى يحيط به علماً.

النوع الثاني: فهم الواجب في الواقع، وهو فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه أو على لسان رسوله في هذا الواقع، ثم يطبق أحدهما على الآخر، فمن بذل جهده واستفرغ وسعه في ذلك لم يَعْدم أجرين أو أجراً، فالعالم من يتوصل بمعرفة الواقع والتفقه فيه إلى معرفة حكم الله ورسوله"[٢٦].

وقال أيضاً: "فهاهنا نوعان من الفقه لابدّ للحاكم منهما، فقه في أحكام الحوادث الكلية، وفقه في نفس الواقع وأحوال الناس، يميز بين الصادق والكاذب والمحق والمبطل ثم يطابق بين هذا وهذا، فيعطي الواقع حكمه من الواجب، ولا يجعل الواجب مخالفاً للواقع"[٢٧].

ثامناً: ضوابط في فقه الواقع[٢٨]:

[١] التثبت من صحة المعلومات .

يجب على المسلم التثبت من صحة معلوماته، وثقة مصادره التي على أساسها يصف الواقع ويحدد معالمه، ويكشف حقائقه، وإلا فإن فهمه للواقع وتوصيفه له سيكون مغلوطاً غير مطابق للواقع وبذلك يفقد الناس ثقتهم فيه.

والأصل في هذا المعنى قوله تعالى: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا)**، وفي قراءة :"فتثبتوا" وكذلك قوله تعالى: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ)**.

---

(٢٦) إعلام الموقعين (١/ ٨٧).

(٢٧) الطرق الحكمية (٤ ، ٣٨) .

(٢٨) انظر في بعض فقراتها: فقه الواقع – د. ناصر العمر.

وليس كل خبر يتناقله الناس، أو وكالات الأنباء يكون صحيحاً، فإن كثيراً منها هي عبارة عن إشاعات أو اجتهادات تنشر بحسن نية أو سوء نية، وصناعة الخبر مهمة تخصص فيها بعض الناس اليوم لمقاصد مختلفة ولهذا ذم النبي r التحديث بكل ما يسمعه الإنسان وقال: **(كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع)** وقال أيضا: **(بئس مطية الرجل زعموا).**

[٢] الموضوعية والالتزام بالأصول العلمية الشرعية:

يجب على المسلم في فهمه للواقع وتحليل أحداثه أن يلتزم بالأصول العلمية والقواعد الشرعية، وأن يخضع كل ذلك لمقتضيات العلم والشرع، لأن الواقع غير معصوم كما عرفنا سابقاً فيمكن أن يكون موافقاً للشرع ويمكن أن يكون مخالفاً له، والفقيه بالواقع يميز بينها، وينطلق في فهم الواقع وتحليله من المنطلقات الصحيحة، والنظرة الموضوعية وعدم التأثر بالطبيعة النفسية والخلفيات الفكرية، لأن تفسير الواقع هو مثل التفسير التاريخي قد يتأثر باتجاه المفسّر ونفسيته وخلفيته الفكرية والثقافية.

إن ضغط الواقع ومسايرة الناس يدفع بعض الناس إلى الترخص في غير مواضع الرخصة، والتيسير في غير مواضع التيسير، وتتبع زلات العلماء، والأخذ بنوادر الفقهاء تأثراً بالثقافة السائدة، ومسايرةً للواقع، بل قد يدفع ذلك بعضَ العلماء والمثقفين إلى تقديم التنازلات، والأخذ بالمداهنات إرضاءً للناس وخوفاً من سخط الرأي العام أو أصحاب السلطة، بل ربما انقلب بعضهم على أصول المنهج الإسلامي وأحكامه القطعية تحت شعار التجديد أو التيسير أو مراعاة الواقع.

قال النبي r : **(بين يدي الساعة فتن كقطع الليل المظلم، يمسي الرجل فيها مؤمناً، ويصبح كافراً، ويصبح مؤمناً ويمسي كافراً يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل).**

وتتعالى أصوات كثير من المثقفين بالتشكيك في حجية السنة أحياناً، وفي حجية الإجماع أحياناً، وفي دلالات النصوص أحياناً أخرى.

ويحاول هؤلاء المتساهلون والمفرّطون أن يلتمسوا المخارج الشرعية، ويتجاوزوا النصوص والأحكام الثابتة بحجة الخلاف أحياناً، وبحجة التيسير أحياناً أخرى، وربما يقع في هذا بعض

أهل العلم والدعاة بدوافع طيبة ونوايا حسنة، ولكن التسرّع وعدم التأني وقلة التبصر يـــدفع هؤلاء للوقوع في هذه المزالق والأخطاء.

التسيير والمصابرة لا التبديل والمسايرة:

إن المطلوب من المسلم القوي هو تسيير الناس وتغيير الواقع نحو الأفضل والأصلح لهـــم في أمور الدنيا والآخرة، والأخذ بأيديهم نحو الكمـــال، ولـــيس المســـايرة والخضـــوع والاستسلام لضغوط الواقع ورغبات الناس.

قال تعالى: **(آلـــر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ).**

والمطلوب أيضاً من المسلم هو الثبات على الحق، والتمسك بالمنـــهج، والصـــبر علـــى الطريق، سواء رضي الناس أم سخطوا، كما وصفه النبي r فقال: **(يأتي على الناس زمان الصابر فيهم على دينه كالقابض على الجمر)** وفي رواية أخرى: **(للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عملكم).**

إن عملية "تفسير الواقع" هي عملية عقلية تحليلية محضة لا دخل للعواطـــف والضـــغوط النفسية في تصويرها وتشكيلها.

[٣] الاعتدال وتجنب المبالغـــات .

يجب على الناظر في الواقع والمتصدي لتحليله وفهمه أن يكـــون معتـــدلاً في نظرتـــه، موضوعياً في حكمه، فلا يخرج عن ذلك إلى ألوان المبالغات، وأنواع الزيادات.

فيجب الحذر من النظرة الإطرائية للواقع ومحاولة تحسينه وإبراز صـــورته ســـالمة مـــن العيوب، مترهة من النقائص، ويجب الحذر من النظرة التشاؤمية التي لا تنظر إلى الواقع إلا بمنظار أسود، وتقتصر على الجوانب السيئة فقط، ولا ترى في الواقع إلا الظلمات متراكمة موروثة من الداخل أو وافدة من الخارج، ولا يحكم على طبقات المجتمـــع إلا بالفســـاد، فالجماهير مضللة والحكومات خائنة، والأقطار مجرد أصفار، وجهود الإصلاح هي سراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء، فكل هذه نظرات جزئية ناقصة لا يصح العمل بها.

كما يجب الحذر من النظرة التبريرية للواقع بحيث يحاول صاحبه أن يضفي على الواقـــع صفة الشرعية وإن حاد عن الحق وسواء السبيل، فإن هذا لون من ألوان التـــدليس علـــى الناس، والتلبيس على النفس.

كما يجب الحذر من المبالغة في النظرة التآمرية للواقع، بمعنى أن الناظر يرى وراء كـــل حدث وإن كان صغيراً أيادي متآمرة وقوى خفية، ومخططاً مقصوداً من أعداء الأمة، فهو يعلق كل الأحداث على التآمر الخارجي.

ونحن لا نشك أن هناك حملة مقصودة ضد العالم الإسلامي، ولكـــن المبالغـــة في ذلـــك مرفوضة، وتصويرنا بأننا أحجار على رقعة الشطرنج يدفعنا إلى اليأس والاستسلام للواقع المرّ.

إن كثيراً من أخطائنا راجعة إلى عوامل داخلية، وأسباب ذاتية هي التي تفتح الباب للتآمر الخارجي كما قررّ القرآن ذلك في قوله تعالى: **(أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ)**. كما سماه مالك بن نبي في بعض كتبه "القابلية للاستعمار".

إن النظرة للواقع يجب أن تكون مطابقة للواقع دون تحريف ولا تزييف ولا تهويـــل ولا تهوين[٢٩].

[٤] تجنب الجزم والقطع في توصيف الواقع المظنون:

إن عملية فهم الواقع وتفسير الأحداث هي عملية استنباطية واجتهادية في أكثر حالاتها، لأنها تعتمد على أمارات ظنية وأدلة محتملة وخاصة فيما يتعلق بتحديد الأسباب وتحديـــد النتائج المستقبلية.. وتبعاً لذلك لا يصح للمتصدي لفقه الواقع أن يجزم برأيـــه، ويقطـــع بتحليله، لأن المقدمات الظنية لا تؤدي إلى نتائج قطعية كما يقول الأخضري:

فإن لازم المقدمات ... بحســـــــب المقـــــــــدمات آتِ

ولكن الحالة الوحيدة التي يقطع فيها الإنسان بتحليله للواقع وتفسيره للأحداث هـــو أن تكون مستنداته كلها يقينية ومقدماته قطعية كالاستقراء التام والحس، كما يقول في المرتقى:

وإن يكن جمعه قطعيا ... فينـــــتج القطعـــــي لا الظنيـــــا
وإن تكن إحداهما ظنية ... فلـــــيس بـــــالمنتج للقطعيـــــة[٣٠]

(٢٩) انظر: الثقافة العربية الإسلامية – القرضاوي (ص٨٣-٨٦).

(٣٠) مرتقى الوصول لابن عاصم الأندلسي (٣٠).

ويتأكد هذا الضابط في التوقعات المستقبلية فإنها من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، ولا يجري فيها القدر على وفق رغبات الناس وإرادتهم ولكن على وفق إرادة الله تعالى: **(وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)، (وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ)، (وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا).**

إن كثيراً من الباحثين والدعاة جزموا بتحليلات معينة وتوقعات محددة في أمور مستقبلية، ولكن الأوضاع جرت بخلاف ذلك، ولم يتحقق ما توقعوه فكان ذلك طعناً في تفكيرهم، ومدخلاً للتشكيك في كفاءاتهم وقدراتهم العلمية والسياسية.

إن إدراك ظنية كثير من محاولات توصيف الواقع ـــ وأنها في النهاية اجتهادات محتملة ينطبق عليها قول بعض السلف:" رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب"، ـــ يدفعنا ذلك إلى أمور:

(أ) احترام الرأي المخالف في القضايا الظنية، وعدم مصادرته، وتجنب منع الآخرين من الاجتهاد، أو ذمهم على اجتهاداتهم المغايرة، فإن الاجتهاد حق متاح لكل من تأهل له، واجتمعت فيه شروطه، وليس حكراً على شخص دون آخر، أو على طائفة دون أخرى.

والمجتهدون المؤهلون مترددون بين صواب يؤجرون عليه، وخطأ يؤجرون على اجتهادهم معه كما جاء في الحديث الصحيح : **(إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإذا أخطأ فله أجر واحد).**

(ب) الحفاظ على المعاني القطعية، والمبادئ اليقينية في الشريعة، فلا يصح عقلاً ولا شرعاً أن نضيع قواطع الإسلام لاجتهادات محتملة في تفسير الواقع وتحليله، كأن نضيع وحدة الأمة واجتماع الكلمة وأخوة المؤمنين وأمن المجتمع وسلامته من أجل رؤى اجتهادية ونظرات فكرية ظنية ، وقد قرر الأصوليون أن التعارض إذا وقع بين القطعي والظني فإنه يقدم القطعي.

[٥] احترام التخصص وعدم الافتئات على مسؤوليات الآخرين.

إن من ضوابط فقه الواقع أن يحترم الدارس له مبدأ التخصص فيرجع في كل قضية إلى المتخصصين الثقات، فإن كانت المسألة اقتصادية استشار الاقتصاديين، وإن كانت المسألة

سياسية استشار السياسيين، وإن كانت المسألة طبية استشار الأطباء .. **(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)**، وكل طائفة متخصصة في أمر هم أهل الذكر فيه.

وقال تعالى: **(وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ...)**.

ولا يصح للباحث المتصدّي لتفسير الواقع أن يتعدى على مسؤوليات الآخرين، ويصادرهم حق اتخاذ القرار المناسب تجاه الأحداث، إن اجتهاده ليس ملزماً للآخرين والاجتهاد لا ينقض بالاجتهاد، وليس رأيه أولى بالصواب من رأي غيره.

والشخص في موقع المسؤولية تتعدد عنده غالباً زوايا النظر، وقد تتوفر عادة عنده من المعلومات مالا تتوفر عند غيره، ودوره يتمثل في المشاورة لأهل الرأي ثم اتخاذ القرار الذي يراه صواباً، **(وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ)** كما أن دور الآخرين يتمثل في إبداء الرأي و المناصحة بالأسلوب الحكيم الذي يحقق المصلحة ولا يثير المفسدة **(الدين النصيحة)** قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: **(لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم)** رواه مسلم.

إن اتخاذ القرار الأخير في الأمور العامة هو مسؤولية ولاة الأمر ، وهم المسؤولون أمام الله وأمام التاريخ، وليس أمراً متروكاً لكل أحد كما قال تعالى: **(وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ...)** فعاتب الله تعالى أناساً على استبدادهم بالرأي وعدم ردّ الأمور إلى أصحابها المسؤولين عنها، وأخبر أن هذا الردّ والمراجعة أقرب إلى العلم وإدراك الحقيقة.

وقد ذكر الفقهاء أن ما كان من حقوق الله تعالى ـــ أي المصالح العامة ـــ فمرجعه إلى الإمام بالاتفاق وذلك كتطبيق الحدود وإعلان الجهاد وتوزيع الغنائم، ومن افتات على الإمام فإنه يُعزر(٣١).

ويأتي مع ذلك دور الفقهاء وأهل الحل والعقد في الرقابة والتوجيه والنصيحة كلما رأوا خطأ وخروجا عن النهج الصحيح .

---

(٣١) انظر : الكافي لابن قدامة (٥/٣٢٥ـ٣٢٦)، تفسير القرطبي (٢/٢٥٦)، الموسوعة الفقهية الكويتية (٥/٢٨٠).

وبهذا النظام تنضبط أوضاع الأمة، وتحفظ مصالحها ووحدتها تحت كلمة سواء، وبدون الالتزام بهذا الضابط تشيع الفوضى ويكثر النزاع وتتمزق وحدة الأمة.

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم   ولا سراة إذا ما جهالهم سادوا

إن مسائل الواقع تتنوع إلى نوعين:

١) مسائل فردية ترتبط بأشخاص معينين لا بالمجتمع كله.

٢) مسائل عامة ترتبط بالمجتمع كله وتسمى بالظواهر العامة.

والتعامل في القضايا العامة يختلف عن التعامل في القضايا الخاصة، والمسؤولية في القضايا العامة تقوم في الأصل على عاتق ولاة الأمر وأهل الحل والعقد، وهم المباشرون لاتخاذ القرار فيها، ودور العامة هو دور سلمي يقوم على المناصرة والمناصحة والعلاج بالأساليب السلمية بقدر الطاقة والاستطاعة.

ويتأكد هذا المعنى في القضايا المعقدة المتشابكة، والمواقف الفاصلة في تاريخ الأمة، فمثل هذه المسائل يجب أن تكف عنها العامة وأشباههم، واتخاذ الموقف فيها يردّ إلى أهل العلم والرأي كما قال تعالى: **(وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ...)**.

وقد تدفع الغيرة على الدين وقوة الإرادة بعض أهل الخير لاتخاذ مواقف ، والخوض في قضايا بناءً على نظر محدود واجتهاد مظنون ، وكان الأولى بهم الاحتياط لأنفسهم والحفاظ على مصالح الأمة في حاضرها ومستقبلها.

إن القضايا العامة غالباً ما تكون معقدة الجوانب، متعددة الأبعاد، تخفى على العامة فيها كثير من الجوانب، وإن كانت فيها جوانب واضحة محكمة يراها الخاصة والعامة، ومثل هذه القضايا تحتاج إلى ضرب من الاجتهاد ولون من النظر الدقيق الذي يعجز عنه العامة لمشقته ودقته[٣٢].

إن من أعظم أسباب الفتن الداخلية التي وقعت في تاريخنا هو خوض العامة وأشباههم في قضايا عامة معقدة لا يملكون وسائل الحكم السليم وآليات النظر فيها كما يدل عليه

(٣٢) انظر: مقولات في فقه الموقف ـ العودة (٢٧).

الاستقراء التاريخي من عصر عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم إلى عصرنا الحالي .

[٦] توافر الأهلية وامتلاك القدرة العلمية والذهنية.

إن تحليل الوقائع، وتحديد الأسباب، وربط الحقائق بعضها ببعض، وتحديد الموقف الرشيد منها كل ذلك يتطلب توافر الأهلية في الشخص المتصدّي لها، والقدرة العقلية والعلمية على تحليل الوقائع وردّها لأصولها والربط بين أجزائها، والاستفادة من الوقائع المشابهة، فهو في كثير من صوره ضرب من الاجتهاد المعقد الذي لا يصلح له كل أحد.

وقد وضع الأصوليون شروطاً للإفتاء والاجتهاد لأنه لا يستطيعه كل أحد من الناس، وهكذا فقه الواقع هو ضرب من الاجتهاد يقوم على أمور ظنية تحتاج إلى قدر من الذكاء والعلم لا يتوفر في كل أحد، فكما أن فهم النص يتطلب شروطاً ومواصفات محددة، فكذلك فقه الواقع يحتاج إلى مواصفات محددة لا تتوافر في كل شخص.

هذه جملة من الضوابط العلمية والشرعية التي من شأنها أن تجعل اهتمام الخطباء بفقه الواقع ومعالجتهم لتحديات العصر ومشكلات الأمة قائما على أصول صحيحة ومؤديا للنتائج الإيجابية المقصودة من رسالة المسجد .

التوصيـــات :

(١) بذل مزيد من الجهود العلمية والبرامج العملية لدراسة الفكر الخطابي ومعالجة مشكلاته المعاصرة وتطوير أدائه بما يتناسب مع تطور المجتمع .

(٢) تقديم دورات متخصصة لخطباء المساجد لتوضيح الطريقة المثلى لمعالجة القضايا والتحديات المعاصرة بأسلوب علمي يقوم على أساس الوسطية والاعتدال ومراعاة الضوابط الشرعية .

(٣) إدراج مقرر خاص بعنوان " فقه الواقع في ضوء الكتاب والسنة " في مناهج المعاهد والكليات التي تقدم لخطباء المساجد .

(٤) إنشاء مراكز علمية متخصصة في دراسة التحديات المعاصرة وتقديم رؤية علمية عميقة يستفيد منها الأئمة والخطباء .

(٥) عقد مؤتمر عالمي لدراسة أوضاع الأئمة والخطباء وصياغة منهجية واضحة معتدلة ترشّد وتطور دور الأئمة والخطباء في مجتمعاتهم .

(٦) فتح قنوات حوار وتشاور بين الخطباء والجهات الرسمية المعنية في المجتمع للتعاون في توجيه المجتمع والحفاظ على وحدته وتماسكه أمام التحديات .

والله أعلم وأحكم والحمد لله رب العالمين